مجلَّة الذخيرة للبحوث و الدراسات الإسلامية المجلد الثالث العدد الأول (جوان 2019 م)


قسم العلوم الإسلامية / جامعة غرداية
E-ISSN: 2588-1728 / P-ISSN: 2602-7518
http://eddakhira.univ-ghardaia.dz

دخول العقيدة الأشعرية إلى بلاد المغرب

دراسة في الأسباب التاريخية والموضوعية

د.عبدالكريم القلالي
باحث – الحسيمة – المملكة المغربية
karim_kallali@hotmail.com

ملخص

يتناول هذا البحث الذي عنونته بعنوان "دخول العقيدة الأشعرية إلى المغرب دراسة في الأسباب التاريخية والموضوعية" المراحل الأولى لدخول الأشعرية إلى المغرب، وقد دعاني للكتابة فيه ما في الأمر من اضطراب تاريخي وتباين في الآراء، وتوخيت رفع بعض اللبس الحاصل ببيان جملة من العوامل التي يسرت دخول الأشعرية وانتشارها، مجيبا على أهم الإشكالات المتعلقة بما كان قبل الأشعرية من نحل ومذاهب ببلاد المغرب، وأسباب اندثارها، وخصصت المطلب الأول من البحث للحديث عن الأسباب التاريخية، وذكرت فيه ما كان من اتصال المغاربة بنظرائهم الأشاعرة في المشرق، وجهود علماء الأشاعرة في نشر عقيدتهم، والوحدة السياسية التي اتسمت بها المراحل الأولى لاختيار العقيدة الأشعرية، وتبني الدولة الموحدية المذهب الأشعري، ودور المؤسسات العلمية في نشر العقيدة الأشعرية، وبينت في المطلب الثاني الأسباب الموضوعية لاختيار المغاربة العقيدة الأشعرية وذكرت جملة من الأسباب، منها: اعتقاد أن الأشعرية هي الفرقة الناجية، وما تميزت به عقيدة الأشاعرة في المغرب عن المشرق، وتمذهب بعض فقهاء المالكية بالعقيدة الأشعرية وشخصية بعض علماء الأشاعرة.

الكلمات المفتاحية: العقيدة الأشعرية، دخول الأشعرية إلى المغرب، الأشاعرة، الأشعرية

.Abstract

This research, entitled "The entry of the Ash'ari faith into Morocco, examines the historical and objective reasons". The first stages of the entry of Ash'ariyya into Morocco, and I was invited to write in it the historical disturbance and divergence of opinions, and sought to raise some confusion, The first requirement of the research was to talk about the historical reasons,

in which it mentioned what the Moroccans had to do with their Ashura counterparts in the Orient, and the efforts of the Ash'ari scholars In the dissemination of their faith, and the political unity that characterized the early stages of the selection of the Ash'ari doctrine, the adoption of the Almohad state of Ash'ari doctrine, the role of scientific institutions in the dissemination of the Ash'ari doctrine, and in the second demand the objective reasons for the selection of Moroccans Ash'ari doctrine. The surviving group, and the characteristic of the doctrine of the poets in Morocco about the Orient, and some of the scholars of the Malikya doctrine Asharip and the personality of some of the scientists Ashayra

Keywords : Ash'ariyya Creed, Ash'ariyya entry into Morocco, Ashayra, Ash'ariyah.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذه ورقات بحثية قصدت بها الإشارة إلى الأسباب التاريخية والموضوعية لدخول العقيدة الأشعرية إلى بلاد المغرب الأقصى، وبيان العوامل المساعدة على انتشارها واستمرارها، من الناحيتين: العلمية والرسمية، حيث ظهرت في المرحلة الأولى الجهود والرحلات العلمية التي كانت ضمن التواصل العلمي بين المشرق والمغرب، وما حصل من تبادل ونقل معرفي أثمر فكرا عقديا ومنهجا كلاميا استمدت أصوله من أشاعرة المشرق وبدت آثاره واضحة في بلاد المغرب، وتتناول هذه الورقات بالبيان نسق الجهود العلمية والسياسية في نشر الفكر الأشعري بهذا القطر وتبنيه، وأنه ما كانت هذه الجهود لتستمر وتثمر لولا التبني الرسمي لها من قبل الدولة الموحدية والسعي لحماية الفكر الأشعري ونشره ليحل بذلك محل بعض النحل التي كانت بدأت تنتشر بالمغرب ولم يكتب لها الاستمرار لأسباب علمية وغيرها.

دواعي الكتابة في الموضوع:

دواعي الكتابة في هذا الموضوع كثيرة، منها:

- كونه موضوعا أثيرت حوله العديد من الإشكاليات، ولم يفصل فيها القول بعد، وكثير مما قيل حول دخول العقيدة الأشعرية إلى المغرب يحتاج إلى تحقيق وتدقيق، وتلك منية صعبة المنال لما يكتنف ذلك من صعاب علمية وغير علمية أحيانا.

- يضاف لتلك الإشكالات قلة ما كتب في الموضوع بشكل مستقل، أما الحديث عنه في مصادر متناثرة فموجود ويحتاج إلى تنظيم وترتيب، وكثير من الحقائق المذكورة في المصادر التاريخية تحتاج إلى تصحيح وتثبت للخروج من الاضطراب الواقع في عدد من الحقائق والروايات، وقد بذلت الوسع لتحصيل شيء من ذلك متحريا التحقيق، للوصول إلى الأسباب التاريخية والموضوعية التي ساهمت في دخول مذهب الأشاعرة إلى بلاد المغرب، ولاستيفاء ما رمته

خطة البحث: وضعت لبحثي خطة عبارة عن أسباب تحقق المقصود؛ وهي كالتالي:

تناولت في تمهيد البحث عقيدة المغاربة قبل دخول الأشعرية، وبعدها بينت أهم الأسباب التاريخية والموضوعية التي جعلت المغاربة يختارون العقيدة الأشعرية، أما صلب البحث فجعلته في مطلبين:

المطلب الأول: الأسباب التاريخية

وتناولت فيه:

السبب الأول: اتصال المغاربة بنظرائهم الأشاعرة في المشرق.

السبب الثاني: جهود علماء الأشاعرة في نشر عقيدتهم.

السبب الثالث: الوحدة السياسية في المراحل الأولى لاختيار العقيدة الأشعرية

السبب الرابع: تبني الدولة الموحدية المذهب الأشعري

السبب الخامس: دور المؤسسات العلمية في نشر العقيدة الأشعرية

المطلب الثاني: الأسباب الموضوعية

وفيه:

السبب الأول: اعتقاد أن الأشعرية هي الفرقة الناجية.

السبب الثاني: ما تميزت به عقيدة الأشاعرة في المغرب عن المشرق.

السبب الثالث: تمذهب بعض فقهاء المالكية بالعقيدة الأشعرية

السبب الرابع: شخصية بعض علماء الأشاعرة

ثم خاتمة خلصت فيها لأهم ما توصلت إليه في هذا البحث.

تمهيد:

عقيدة المغاربة قبل دخول العقيدة الأشعرية:

تتباين الآراء في تحديد العقيدة التي كان عليها المغاربة قبل دخول الأشعرية إلى المغرب، والمتوفر من النصوص التاريخية يستفاد منها تعدد الفرق العقدية بالمغرب، وجاءت بعدها الأشعرية التي ذاعت بين أهل المغرب، وقد عرفوها في "وقت مبكر، أما اعتناقها فلم يكن منتشرا قبل المهدي ابن تومرت إلا وجودا محدودا في آحاد الأفراد، ولا تتوفر لدينا المعلومات التاريخية الكافية التي يمكن أن نكون منها رأيا واضحا فيما يتعلق بصدى الأشعرية بالمغرب الإسلامي قبل دعوة ابن تومرت، ولكن هناك إشارات متفرقة في كتب التاريخ والتراجم تؤلف في مجموعها أرضية يمكن الاعتماد عليها في تكوين فكرة حول هذا الموضوع"[1].

وذكر الدكتور إبراهيم التهامي أن أول رجل عرف الأشعرية في المغرب هو إبراهيم بن عبد الله الزبيري المعروف بالقلانسي (ت: 359هـ). ورجل آخر عرف الأشعرية في وقت مبكر هو أبو ميمونة دراس بن إسماعيل الفاسي (ت: 357هـ)[2].

واعتبر الدكتور جمال علال البختي نسبة القلانسي إلى الطريقة الأشعرية (فضلا عن كونه أول من أدخلها) مجانبة للصواب، ورد ذلك بقوله: «وقد تنكب الصواب بعض الباحثين المهتمين بدراسة الفكر الأشعري المغربي لهاته الفترة لما نسبوا بعض علماء أفريقية والمغرب إلى الطريقة الأشعرية؛ كما فعلوا مع أبي إسحاق إبراهيم

1 - إبراهيم التهامي، الأشعرية في المغرب، دخولها رجالها تطورها وموقف الناس منها، ص: 10.

2 - المرجع نفسه، ص: 12.

القلانسي (ت: 361ه/791م) وابن أبي زيد القيرواني، والذي تبين لي بعد الدراسة الممحصة أن تلك النسبة لا يوجد من الوثائق والأدلة ما يؤكدها، ولذلك أجزم بأن هذين العالمين لم يكونا أشعريين، وإنما كانا من المعتنقين للمذهب السلفي في العقيدة»[1].

وذكر البختي أن هذه المحطة الأولى التي سماها محطة "المعرفة الأولى بالأشعرية" قادها العالم الفاسي دراس بن إسماعيل (ت: 357ه)، ولم يبين هل دراس أول من أدخلها أو غيره، واكتفى بقوله: "قادها"، وهي عبارة لا يستفاد منها أنه أول من أدخلها، والمسألة تحتاج إلى تحقيق ونظر.

ويرى الأستاذ البختي أن العقيدة الأشعرية في المغرب مرت بثلاث مراحل أساسية: مرحلة ما قبل الترسيم، ومرحلة الترسيم والترسيخ، ثم مرحلة الاكتساح والتوسع[2].

والقول بدخول العقيدة الأشعرية إلى المغرب زمن المرابطين أو غيره، فيه إشارة إلى أن هناك عقيدة أو عقائد دان بها المغاربة قبل العقيدة الأشعرية، وتختلف آراء الباحثين حول المذهب الذي كان سائدا في المغرب آنذاك.

وأهم المذاهب العقدية التي كانت قبل الأشعرية بالمغرب، هي:

1- **الاتجاه السني:** ويمثله دولتا الأغالبة والمرابطين والدولة الزيرية الصنهاجية في آخر عمرها.

وقد أسس دولة الأغالبة في "المغرب الأدنى" إبراهيم بن الأغلب ابن سالم التميمي الذي عينه الخليفة العباسي هارون الرشيد (171-193ه) سنة: 184ه على ولاية إفريقية، وقد عمل الأغالبة -خلال حكمهم- على توطيد المذهب السني ونشره في البلاد التي خضعت لنفوذهم في بلاد المغرب، وصقلية، كما عملوا أيضا على نشر الحضارة الإسلامية في تلك الديار[3].

1 - ابن خمير السبتي، مقدمات المراشد إلى علم العقائد، تحقيق: جمال علال البختي، ص: 13.
2 - المرجع نفسه، ص: 13.
3 - محمود إسماعيل، الأغالبة سياستهم الخارجية، ص: 44.

وبالإضافة إلى هاتين الدولتين السنيتين، فإن الدولة الزيرية الصنهاجية قد نهجت النهج السني في آخر عمرها وذلك حينما أعلن المعز بن باديس (406-453هـ) انفصاله عن الدولة العبيدية سنة 440هـ حيث خلع طاعتهم، وأخذ بمذهب أهل السنة كما لعن الرافضة وقتل من وجده في دياره منهم، ثم ما لبث أن دعا للخليفة العباسي القائم بأمر الله (422-467هـ) وبهذا تحول اتجاه هذه الدولة إلى الاتجاه السني، بعد أن كان اتجاهها رافضيا.

ومن الدارسين من ذكر أن المغرب الإسلامي قبل دعوة ابن تومرت كان يسير على مذهب السلف الصالح، و يمقت "علم الكلام" الذي يتصدى لتأويل المتشابه من القرآن الكريم، ومن الذين اهتموا بعلم الكلام بالمغرب الأوسط في عهد الموحدين محمد بن إبراهيم المهدي من بجاية تلقنه بعد رحلته إلى المشرق ثم عاد ليدرس بالمغرب ثم تولى قضاء بجاية غير مرة[1].

قال ابن خلدون: «وانطوى هذا الإمام (يقصد ابن تومرت) راجعا إلى المغرب بحرا متفجرا من العلم وشهابا واريا من الدين، وكان قد لقي بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم واستحسن طريقهم في الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية الدافعة في صدر أهل البدعة، وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآي والأحاديث، بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن اتباعهم في التأويل والأخذ برأيهم فيه، اقتداء بالسلف في ترك التأويل وإقرار المتشابهات كما جاءت، ففطن أهل المغرب في ذلك وحملهم على القول بالتأويل والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد وأعلن بإمامتهم ووجوب تقليدهم وألف العقائد على رأيهم»[2].

ومن الدارسين الذين أكدوا هذا علامة الجزائر ومؤرخها مبارك الميلي، وفي ذلك يقول: «وكان أهل المغرب سلفيين حتى رحل ابن تومرت إلى الشرق وعزم على إحداث انقلاب بالمغرب سياسي علمي ديني، فأخذ بطريقة الأشعري ونصرها وسمى المرابطين السلفيين مجسمين، تم انقلابه على يد عبد المؤمن فتم انتصار

1 - عبد الله علام، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، ص: 305-306.

2 - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج: 6، ص: 226.

الأشاعرة بالمغرب، واحتجبت السلفية بسقوط دولة صنهاجة، فلم ينصرها بعدهم إلا أفراد قليلون من أهل العلم في أزمنة مختلفة»[1].

وإلى مثل هذا ذهب إبراهيم التهامي بقوله: «لقد ظل المغرب الإسلامي على مذهب السلف في الاعتقاد بظواهر النصوص والصفات الواردة فيها من غير تأويل ولا صرف لها عن مدلولها اللغوي مع التنزيه للخالق عز وجل وذاته العلية عن أن تشبه الذوات وتتصف بصفات المخلوقين...، وظل الأمر على ذلك إلى عهد ابن تومرت ورجوعه عن رحلته المشرقية، حيث عمل على تحويل الناس عن مذهب السلف إلى المذهب الأشعري»[2].

وهذه النصوص دالة على أثر ابن تومرت في هذا التحول، وهو وإن لم يكن مجهود فرد ولا عمل شخص، فإنه ينسب له ذلك لكون جهوده كانت هي الأبرز، ولتمكنه من القوة العلمية والمادية التي جعلته يحمل الناس على ما يدعو إليه طوعا وكرها.

2- الاتجاهات غير السنية : وقد تبنتها دول منها :

- دولة بني مدرار في سجلماسة جنوب المغرب الأقصى (140-347هـ)، فقد قامت على يد عيسى بن يزيد المكناسي والذي كان يدين بالمذهب الصفري أحد الاتجاهات الرئيسية عند الخوارج، حيث بسطت هذه الدولة سلطانها على منطقة سلجماسة جنوب بلاد المغرب الأقصى[3]. وامتدت إلى 347ه.

- دولة الرستميين (144-296ه)، التي قامت على المذهب الإباضي .

- دولة العبيديين، المنتسبة إلى الشيعة، و سبب دخول هذا الاتجاه إلى المغرب أن: «المحتسب (عبد الله المحتسب داعية العبيديين من الشيعة) حج في بعض السنين واجتمع بمكة بحجاج كتامة من أهل المغرب؛ فتعرف إليهم ووعدهم بظهور المهدي من آل البيت على يدهم، ويكون لهم به الملك والسلطان؛ فتبعوه على رأيه وصحبهم

1 - مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج:1، ص: 81.

2 - إبراهيم التهامي، الأشعرية في المغرب، دخولها رجالها تطورها وموقف الناس منها، الجزائر، ص: 3.

3 - احمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص: 46.

إلى بلادهم، ورأس فيهم رئاسة دينية، وقرر لهم مذهب الشيعة فاتبعوه وتمسكوا به؛ ثم بايعوا مولاه عبيد الله المهدي أول خلفاء العبيديين فاستولى على إفريقية»[1].

وهذا الاتجاه كان آخر المذاهب الفكرية دخولا لبلاد المغرب؛ إذ أن الدولة العبيدية التي نشرت هذا المذهب هناك، لم تقم في بلاد المغرب الأدنى إلا في سنة 296هـ.

وبالرغم من كون الدولة العبيدية قد تمكنت من القضاء على الأغالبة، والرستميين، والمدراريين، والأدارسة فاستطاعت بذلك -إلى حد ما- أن تبسط سلطانها السياسي على معظم أقاليم بلاد المغرب، إلا أنها لم تتمكن من فرض مذهبها الديني على أهالي تلك الديار، وذلك لأن الناس لم يتقبلوا أفكار العبيديين لما فيها من غلو وشطط لم يألفه سكان تلك الديار، بل إنهم تطلعوا إلى خلافة سنية جديدة قامت في الأندلس هي الخلافة الأموية كما أن أهل السنة قاموا بمقاومة المد الرافضي العبيدي بكل ما يملكون وهذا مما جعل الروافض يرحلون إلى مصر عام 362هـ.

أما تبني دولة الأدارسة للمذهب الاعتزالي، فالذي يبدو هو أن زعماء هذه الدولة لاسيما القدماء منهم وجدوا أن هذا المذهب قد انتشر في بلاد المغرب الأقصى؛ خاصة بين أفراد قبيلة أوربة التي ساعدت إدريس الأول في إقامة دولته، ولهذا لم يجدوا مناصا من إظهار موافقتهم الظاهرية لهذا الفكر ليبقى في دولتهم بعد قيامها مراعاة منهم لزعماء قبيلة أوربة الذين تبنوه وعملوا على نشره، لكن الأدارسة لم يظهروا حماسا لجعله مذهبا رسميا لدولتهم.

ويمكن الجمع بين الأقوال المتضاربة في العقيدة التي كان يدين بها المغاربة قبل دخول العقيدة الأشعرية، باعتبار: أن تلك المذاهب غير السنية سادت ردحا من الزمن ولم يكتب لها الاستمرار والانتشار، واستمسك المغاربة بعقيدة أهل السنة، وبعد النظر في مختلف النصوص الواردة في ذلك وتقرير هذا الجمع الذي خلصت

1 - الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الناصري، ج: 1، ص: 173.

إليه، وجدت نصا لعبد الحفيظ الفاسي يؤكد ذلك[1]، وكذا للمؤرخ المغربي أبو العباس الناصري[2].

وهناك من يرى أن شخصية ابن تومرت كان لها أثر في نشر الأشعرية، بينما ابن تومرت لم يكن منهجه واضحا، ويصعب تصنيفه عقديا؛ فهو شخصية فريدة في التاريخ استخدم كل الأساليب من أجل تحقيق حلمه بإقامة دولة يكون هو زعيما ومرشدا روحيا لها، واجتمعت في شخصيته صفات قلما تجتمع في شخصية أخرى في ذلك الوقت؛ فقد كان على قسط وافر من العلم، وقد ساعده ذلك على الاستفادة من كل الأفكار المطروحة في العالم الإسلامي لينتقي منها ما يلائم دعوته الجديدة ويساعد على تقوية مركزه بين أتباعه؛ كما مكنه تكوينه العلمي من أن يرد على أي انتقاد أو اتهام يوجه له من قبل الخصوم، ساعده في ذلك شجاعته وفصاحة لسانه وسحر بيانه وضعف حجج الخصوم...[3].

كما أن ابن تومرت لم يكن يكتفي بحججه في إقناع الناس من حوله؛ بل كان يوجه السهام نحو خصومه المرابطين وسلك في ذلك أساليب متعددة كرميهم بالظلم والزور والتجسيم.

وإذا كانت آراء الباحثين تختلف في تحديد أول من أدخل عقيدة الأشاعرة إلى المغرب، فإنهم يكادون يتفقون على الزمن الذي دخلت فيه الأشعرية إلى المغرب "القرن الرابع الهجري" ومن المؤكد أن هذا الفكر كان موجودا ومعروفا زمن المرابطين؛ فقد كانت المدرسة الأشعرية موجودة بالمغرب منذ أيام المرابطين.

وذهب بعض الدارسين إلى أن الفكر الأشعري قد دخل المغرب الأقصى مباشرة إلى مراكش زمن المرابطين، وذلك قبل أن ينتشر ويتوسع في مناطق أخرى من الغرب

1 – ينظر: عبدالرحمن الفاسي، نظر الأكياس في الرد على جهمية البيضاء وفاس، (نسخة مفرغة من نسختين خطيتين) نقلا عن موقع:
http://www.al-afak.com/showthread.php?t=4774.

2 – ينظر: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج: 1، ص:127.

3 – دولة الموحدين، علي الصلابي، ص: 250.

الإسلامي، وتدل بعض تلك الدراسات على أن أبا الحسن المرادي الحضرمي (ت: 489هـ) هو أول من أدخل هذا الفكر العقدي الأشعري إلى الغرب الإسلامي عموما، والمغرب خصوصا.

كما تذكر بعض الروايات أن أبا الحجاج يوسف بن موسى الكلبي (ت 520هـ) هو أول من اشتغل بالفكر الأشعري وعلمه ودرسه للمغاربة...، وقد ذكر صاحب "الغنية" وهو يتحدث عن شيوخه في علم الكلام، والعقيدة الأشعرية: «إن أبا الحجاج يوسف بن موسى الكلبي كان من المشتغلين بعلم الكلام، على مذهب الأشعرية بالمغرب، وقرأت عليه أرجوزته الصغرى في الاعتقاد... وهو من تلاميذ أبي الحسن المرادي الحضرمي»[1].

تبين لنا من خلال ما سبق السياق الذي دخلت فيه الأشعرية إلى المغرب، وكيف انتشرت بين الناس وتطورت حتى وصلت إلى ما استقر عليه الأمر الآن، وإذا كان من الصعب الجزم بسبب معين؛ فإنه يبقى هنالك مجموعة من العوامل والأسباب المشتركة التي تضافرت وأدت إلى اعتناق وانتشار المذهب الأشعري لدى المغاربة في زمن مبكر.

المطلب الأول: الأسباب التاريخية

السبب الأول: اتصال المغاربة بعلماء الأشاعرة في المشرق

برز نخبة من العلماء المغاربة العائدين من المشرق، وهم متشبعون بالفكر الأشعري، بعد أن أخذوه من مصادره الأصيلة، فنشروا ذلك بين الناس، ومما نقل في ذلك أن الحسين ابن أبي أمامة المالكي قال: «سمعت أبي يقول: "لعن الله أبا ذر الهروي، فإنه أول من حمل الكلام إلى الحرم، وأول من بثه في المغاربة". قلت (ابن تيمية): أبو ذر فيه من العلم والدين والمعرفة بالحديث والسنة، وانتصابه لرواية البخاري عن شيوخه الثلاثة، وغير ذلك من المحاسن والفضائل ما هو معروف به...، وأهل المغرب كانوا يحجون، فيجتمعون به، ويأخذون عنه الحديث وهذه الطريقة

1 - عياض، الغنية في شيوخ القاضي عياض، تحقيق: ماهر زهير جرار، ص: 25.

ويدلهم على أصلها؛ فيرحل منهم من يرحل إلى المشرق، كما رحل أبو الوليد الباجي، فأخذ طريق أبي جعفر السمناني الحنفي صاحب القاضي أبي بكر، ورحل بعده القاضي أبو بكر بن العربي، فأخذ طريقة أبي المعالي في الإرشاد. ثم إنه ما من هؤلاء إلا له في الإسلام مساع مشكورة، وحسنات مبرورة، وله في الرد على كثير من الإلحاد والبدع والانتصار لكثير من السنة والدين، ما لا يخفى على من عرف أحوالهم وتكلم فيهم بعلم وعدل وإنصاف»[1].

وهذا النقل يشير إلى رحلات كبار علماء المغرب، وما كان من التأثر بشيوخهم بالمشرق، فكان بدهيا أن يظهر ذلك في فكر تلامذتهم، مع تباين واختلاف في بعض المسائل، سيما بعد التطور العلمي والمعرفي لهؤلاء الأعلام؛ فظهرت مخالفات وانتقادات، سيما مؤلفات ابن العربي التي يظهر فيها الكثير من النقد والرد على شيوخه بالمشرق، الأمر الذي يعني أن التأثر حاصل، ولكنه لم يكن تبعية مطلقة، بل كان ذلك بمنهج بصير، وهو تأثر بدهي أن يحصل بين الشيخ والتلميذ.

والنص الذي أوردناه يبين بعض المواقف التي كانت تجاه علم الكلام وما كان يقابل به من النفور من لدن بعض العلماء، بل والتنفير ممن يشتغل به من أهل العلم، حتى بلغ الأمر لعن عالم عرف بفضله وعلمه، ورحل العلماء للأخذ عنه، ولا ينبغي أن تبخس جهود لاختلاف في مسألة أو اشتغال بعلم اهتم به كبار العلماء، وهذا المنهج هو الذي نحتاجه في إنصاف العلماء وما أحوجنا لاستحضاره في زمن يترك فيه علم الرجال لزلة أو كبوة قد تكون أو لا تكون! ولو ترك كل عالم بزلته لترك العلماء كلهم؛ إذ لا عصمة لأحد منهم. فكيف يقال ذلك في رجل عرف عنه من العلم والفضل والدين ونشر العلم والمشيخة في ذلك، وقد ذكر الذهبي في ترجمة أبي ذر الهروي أنه : « أخذ الكلام ورأي أبي الحسن عن القاضي أبي بكر بن الطيب، وبث ذلك بمكة، وحمله عنه المغاربة إلى المغرب، والأندلس، وقبل ذلك كانت علماء المغرب لا يدخلون في الكلام، بل يتقنون الفقه أو الحديث أو العربية، ولا يخوضون في المعقولات، وعلى

1 – ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: محمد رشاد سالم، ج: 1، ص: 345.

ذلك كان الأصيلي، وأبو الوليد بن الفرضي، وأبو عمر الطلمنكي، ومكي القيسي، وأبو عمرو الداني، وأبو عمر بن عبد البر، والعلماء»[1].

ومن أشهر من رحل من المغرب إلى المشرق ابن تومرت الذي كان يعتبر من أكثر العلماء أثرا وتأثيرا في البيئة المغربية بما كان له من بسطة العلم والسلطان، وعن رحلة ابن تومرت يقول المقريزي: «... توجه أبو عبد الله محمد بن تومرت أحد رجالات المغرب إلى العراق، وأخذ عن أبي حامد الغزالي مذهب الأشعري؛ فلما عاد إلى بلاد المغرب وقام في "المصامدة" يفقههم ويعلمهم، وضع لهم عقيدة لقفها عنه عامتهم، ثم مات فخلفه بعد موته عبد المؤمن بن علي الكومي[2] وتلقب بأمير المؤمنين، وغلب على ممالك المغرب هو وأولاده من بعد مدة سنين، وتسموا بالموحدين...»[3].

السبب الثاني: جهود علماء الأشاعرة في نشر عقيدتهم

مما ساعد العقيدة الأشعرية على الانتشار اعتقادها وتبنيها من لدن كبار العلماء، وإضافة إلى تأثيرهم في العلوم الأخرى التي برعوا فيها كان يتم تبعا لذلك تأثيرهم في الجانب العقدي، وهو تأثير لم يكن مقتصرا على الخاصة من التلاميذ بل كان يمتد إلى العامة أيضا، ولم يكتف أشاعرة المشرق على نشر الأشعرية ببلدهم بل اهتموا بنشر ذلك في الأقطار الأخرى بواسطة التلاميذ الذين كانوا يفدون إليهم لتلقي العلوم، ونذكر من ذلك ما فعله أبو بكر الباقلاني؛ حيث أرسل اثنين من تلاميذه لنشر مذهب الأشعري في المغرب، وهما: أبو طاهر البغدادي الناسك الواعظ كان متفننا في علم

---

1 - الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين، ج: 17، ص: 575.

2 - عبد المؤمن بن علي بن عَلَوي الكومي، قال عنه المراكشي في ترجمته «استجاز الخطباء أن يقولوا إذا ذكروه بعد ابن تومرت: قسيمه رضي الله عنه في النسب الكريم، كان مولده في آخر سنة 487ه في أيام يوسف بن تاشفين؛ وكانت وفاته في شهر جمادى الآخرة سنة 558ه، ومدة ولايته من حين استوسق له الأمر بموت علي بن يوسف أمير المسلمين -في سنة 37 على التحقيق- إحدى وعشرين سنة. ولم يزل عبد المؤمن -بعد وفاة ابن تومرت- يطوي الممالك مملكة مملكة، ويدوخ البلاد، إلى أن ذلت له البلاد، وأطاعته العباد» (ينظر: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، للمراكشي، ص: 148).

3- تقي الدين المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق: محمد زينهم/ مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، ج: 4، ص: 160.

الكلام؛ أما الرجل الثاني فهو: الحسين بن عبد الله بن حاتم الأذري، وذكر ابن عساكر في تاريخه: « أن أبا الحسن علي بن المسلم الفقيه يحكي عن بعض شيوخه: أن أبا الحسن بن داود لما كان يصلي في جامع دمشق تكلم فيه بعض الحشوية[1]، فكتب إلى القاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني إلى بغداد يعرفه ذلك ويسأله أن يرسل إلى دمشق من أصحابه من يوضح لهم الحق بالحجة؛ فبعث القاضي تلميذه أبا عبد الله الحسين بن حاتم الأذري؛ فعقد مجلس التذكير في جامع دمشق في حلقة أبي الحسن بن داود وذكر التوحيد ونزه المعبود ونفى عليه التشبيه والتحديد فخرج أهل دمشق من مجلسه وهم يقولون أحد أحد هذا معنى ما ذكره لي، وأقام أبو عبد الله الأزدي بدمشق مدة ثم توجه إلى المغرب فنشر العلم بتلك الناحية واستوطن القيروان إلى أن مات بها رحمه الله»[2].

ويأتي في مقدمة الذين حملوا المذهب الأشعري من المشرق ونشروه في المغرب ابن تورمت، وإن كان هو نفسه لم يلتزم به، وعنه يقول ابن خلدون: «وانطلق هذا الإمام راجعا إلى المغرب بحرا متفجرا من العلم وشهابا واريا من الدين، وكان قد لقي بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم واستحسن طريقهم في الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية الدافعة في صدور أهل البدعة، وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآي والأحاديث بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن اتباعهم في التأويل والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف في ترك التأويل وإمرار المتشابهات كما جاءت، فطعن على أهل المغرب في ذلك وحملهم على القول بالتأويل

1 – الحشوية: يستعمل هذا اللفظ لدى مختلف المذاهب لرمي المخالف، وهناك من يستعمله لذم أهل السنة به، وأصحاب البدع والأهواء سموا أهل الحديث بالحشوية، وزعموا أنهم يحشون الأحاديث التي لا أصل لها في الأحاديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأهل السنة أكثر الناس ذبا ودفاعا عن السنة النبوية. وقد بين ابن تيمية رحمه الله أن هذا اللفظ ليس له مسمى معروف لا في الشرع، ولا في اللغة، ولا في العرف العام، وليس فيه ما يدل على شخص معين، ولا مقالة معينة.

2 – ابن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ج: 7، ص: 471.

والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد وأعلن بإمامتهم ووجوب تقليدهم، وألف العقائد على رأيهم مثل المرشدة والتوحيد»[1].

ومنهج ابن تومرت في نشر ما أخذه عن شيوخه بالمشرق وعما كان يعتقده نجد فيه كثيرا من التباين عمن رحل من علماء المغرب إلى المشرق، وعما كان سائدا في بلاد المغرب على وجه خاص؛ ذلك أن ابن تومرت لما رجع نشر ذلك عن طريق العلم والمناظرة والقوة، بحيث لم يكتف بالتدريس والتأليف والدعوة إلى ما يراه، كما كان يفعل من عرف بالرحلة إلى المشرق من علماء المغرب، الذين كانوا يكتفون بالتأليف ومجالس الدرس، ومرد هذا التباين في المنهج في نظري كون ابن تومرت كان يسعى لمجد العلم والرياسة، فمن استجاب له طوعا فذاك، ومن لم يستجب حمله على الاستجابة بوسائل أخرى، وغالب جهوده كانت تصب في تسفيه مخالفيه من أهل العلم والتقليل من شأنهم لينصرف عنهم العامة ويقبلوا عنه. ولتحقيق طموحه سخر ما يمتلك من الوسائل وسلك مختلف الطرق للوصول إلى ذلك؛ فكان مما فعله: أن أسس مسجدا -في بلاد سوس- يجتمع به مع تلاميذه وزعماء قبيلته، حيث التف حوله الكثير من المؤيدين والأنصار، فاختار منهم نخبة لتكون قاعدة لدعوته؛ حيث شرع في تدريسهم على شكل حلقات ودروس منظمة، وكان يؤصل في نفوس أتباعه موقفه من دولة المرابطين من خلال تلك الحلقات والدروس وبهذا استطاع أن يوجد حاجزا نفسيا قويا بين كثير من تلاميذه ودولة المرابطين، يقول ابن خلدون: «اجتمعت إليه الطلبة والقبائل يعلمهم المرشدة في التوحيد باللسان البربري وشاع أمره»[2]. وهذا بلا شك مما يساعد على تهيئة كثير من الموحدين للتصدي للمرابطين، ومقاومتهم وهو ما كان يهدف إليه ابن تومرت.

ولم يكن ابن تومرت رجل فكر فقط، ولا كان رجل سياسة فقط؛ بل إنه في الحقيقة جمع في شخصه رجل الدين ورجل العلم ورجل السياسة؛ فهو في دينه، ذهب في عبادته وتقشفه إلى درجة التصوف وهو في علمه متبحر، وابن تومرت لم يأخذ من

1 – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج: 4، 75.
2 – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج: 6، ص: 226.

مدرسة واحدة معينة؛ بل أخذ من مدارس فكرية متعددة واختار من المذاهب الفقهية والفكرية ما يلائم شخصيته ومعتقداته ويحقق أهدافه.

وذكر المقريزي أن ابن تومرت تعلم المذهب الأشعري أثناء وجوده في بلاد العراق، فلما عاد إلى بلاد المغرب، وأخذ بتعليم أصحابه علمهم المذهب الأشعري فكان ذلك سببا في انتشار هذا المذهب في بلاد المغرب[1].

وابن تومرت هو الذي هيأ للأشعرية في المغرب، وبسط لها، واتخذ من الوسائل ما يحقق نشرها بين العامة من خلال تبسيطها في لغة التأليف، ومجالس التدريس التي كان يخاطب فيها قومه بلسانهم الأمازيغي، سعيا لتقريب العقيدة الأشعرية للعامة، وتكوين طلبة علم على منهجه من خلال مجالسه في التدريس، وبجهوده «برز أعلام كبار وباحثون متميزون في الفكر الأشعري منهم من اكتفى بالاطلاع على العقيدة الأشعرية والتمكن من مبادئها فقط، ومنهم من تجاوز ذلك إلى تدريسها وتلقينها للناس، ومنهم من قام بالتأليف شرحا لبعض أصولها المشرقية وبسطا لقضاياها، ومنهم من تجاوز هذه المستويات كلها إلى مناقشة الفلاسفة والرد عليهم انطلاقا من القناعات الأشعرية، ومنهم من قام بنظم هذه العقيدة في أراجيز مقربا حفظها إلى تناول العامة والخاصة، ومنهم من سعى إلى نشرها في وسط العامة بتصحيح الأخطاء الواقعة في الاعتقادات مما هو مخالف للمذهب، ومنهم من امتاز بالتأليف المستقل في المذهب منتهجا أسلوبا خاصا يعتمد المبادئ والقضايا المتفق عليها في المدرسة، ولكنه اختار لنفسه طريقة جديدة في الكتابة لم يسبق إليها»[2].

فانتشار المذهب الأشعري كانت وراءه جهود متضافرة قام بها علماء أفذاذ في المشرق والمغرب كأبي بكر الباقلاني، وابن فورك، وأبي إسحاق الإسفراييني، والجويني، والغزالي، والفخر الرازي، والبيضاوي، وعضد الدين الإيجي، والسعد

1- تقي الدين المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق: محمد زينهم/ مديحة الشرقاوي، ج: 4، ص: 165.

2 - مقدمة تحقيق، ابن خمير السبتي، مقدمات المراشد إلى علم العقائد، تحقيق: جمال علال البختي، ص: 23

التفتازاني، والقاضي عياض، وأبي الوليد الباجي، وأبي عمران الفاسي، وأبي بكر بن العربي المعافري، وأبي الحسن القابسي، والمازري التونسي، وأبي الحجاج يوسف بن موسى الكلبي المراكشي الضرير، وأبي عمرو السلالجي، وابن خمير السبتي، وأبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي، وعبد الواحد بن عاشر، وأبي الحسن اليوسي، وأبي العباس أحمد بن المبارك اللمطي السجلماسي، وأبي حامد العربي الفاسي، وغيرهم من الأعلام الذين اهتموا بالعقيدة الأشعرية تأليفا وتدريسا، على تفاوت واختلاف بينهم في بعض الوسائل والفروع.

السبب الثالث: الوحدة السياسية في المراحل الأولى لاختيار العقيدة الأشعرية

منذ انفصال المغرب عن الخلافة العباسية سياسيا سنة (172هـ) ظلت سمة الوحدة السياسية السمة التي طبعت الجو السياسي العام بالمغرب...، وقد اكتملت هذه الوحدة زمن الموحدين بعد الجهد الكبير الذي بذله الأدارسة والمرابطون قبلهم، فسعت الدولة الموحدية إلى محاربة الاتجاه السلفي العقدي، وترسيم المذهب الأشعري مذهبا رسميا للدولة.

لذا فإن الطابع الوحدوي للمنطقة ونزعها الدائم نحو الاتحاد والاستقلال ترابيا وسياسيا واجتماعيا بحكم طبائعها وتقاليدها وتراثها منح للمنطقة وحدة مذهبية وعقائدية وسلوكية أضف إلى ذلك أن منطقة الغرب الإسلامي عموما وبحكم بعدها عن المشرق جغرافيا كانت إلى حد ما أقل تأثرا بالصراعات الأيديولوجية والسياسية التي كانت سائدة آنذاك، وإن ظهر بعض ذلك إلا أنه لا يصل لحد ما كان عليه الأمر بين أهل المشرق.

السبب الرابع: تبني الدولة الموحدية المذهب الأشعري

لم تكتف الدولة الموحدية بتبني العقيدة الأشعرية فقط، بل حملت الناس عليها طوعا أو كرها؛ فقد «صارت دولة الموحدين ببلاد المغرب تستبيح دماء من خالف عقيدة ابن تومرت؛ إذ هو عندهم الإمام المعلوم المهدي المعصوم؛ فكم أراقوا بسبب ذلك من دماء خلائق لا يحصيها إلا الله خالقها سبحانه وتعالى، كما هو معروف في كتب التاريخ؛ فكان هذا هو السبب في اشتهار مذهب الأشعري وانتشاره في أمصار

الإسلام، بحيث نُسي غيره من المذاهب وجهل، حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه، إلا أن يكون مذهب الحنابلة أتباع الإمام أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل رضي الله عنه»[1]. ولا يخفى أن المنهج الذي ينبغي أن يسلك مقارعة الحجة بالحجة ورد الأمور إلى أدلتها الشرعية، ومحاكمة الرجال إلى الحق، وليس محاكمة الحق إلى الرجال، وإذا تأملنا في كثير مما فعله ابن تومرت نجده مخالفا للشرع ولا يقره عليه أشاعرة المغرب أنفسهم؛ فهم قد دعوا إلى الأشعرية بالبرهان والدليل، وتلك هي الدعوة التي كان تأثيرها وأثرها، أما الدعوة بالقوة فسرعان ما تنتهي بموت صاحبها، فلذلك لم يكن لابن تومرت من الأثر العلمي ما كان لغيره من أشاعرة المغرب الذين رحلوا مثله إلى المشرق، وذلك لاختلاف منهجهم في الدعوة عن منهجه، ليس لكونهم لم يمتلكوا من القوة ما امتلك؛ فقد كان بمقدور بعضهم ذلك لو سعوا للأمر سعيه، ولكن الدعوة بالعلم والبيان بالبرهان أبقى وأقوى أثرا من الدعوة بالقهر.

وإذا كان الدكتور جمال علال البختي يرى أن «انتشار أي مذهب وتحقيق ضمانات استمراره مرتبط بوجود نظام يرعاه ويتبناه، وأن الأشعرية المغربية وجدت في ابن تومرت وفي دولته الموحدية خير راع ومساند لها على نشر المذهب الأشعري وإلزام حفظ نصوصه...»[2]. فإني أرى أن ضمان الاستمرار لا يقتصر على الرعاية الرسمية فحسب؛ بل لابد من تآزر الأسباب العلمية والموضوعية ليكون ذلك أبقى وأكثر ذيوعا وانتشارا واستمرارا.

السبب الخامس: مساهمة المؤسسات العلمية في نشر العقيدة الأشعرية

في العصور المتأخرة كان لتبني كثير من دور العلم والجامعات عقيدة ومذهب الأشاعرة دور في نشره، وقد كان لجامع القرويين فضل كبير في نشر العقيدة الأشعرية واستمرار وجودها بالمغرب، إذ كانت محل عناية شيوخه الذين كانوا يقومون على تدريسها ويؤلفون في شرحها وتحليلها إلى عهد قريب «فقد كانت القيروان المركز

1 – المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج: 4، ص:160.

2 جمال علال البختي، جريدة التجديد:

http://www.attajdid.info/def.asp?codelangue=6&infoun=12807

الأساسي لتقبل الأشعرية ونشرها -قبل منتصف القرن الخامس الهجري- لأنها كانت خلال هذه المرحلة نقطة الإشعاع العلمي على كافة أنحاء المغرب بما فيه الأندلس؛ حيث كان يفد إليها الطلبة من كل جهة لتلقي العلم بها، سواء ما أنتجه علماؤها أو ما جلبوه معهم من المشرق خلال رحلتهم؛ كما كانت القيروان مرحلة مهمة من مراحل الرحلة إلى المشرق لأهل المغرب، حيث كانت تقع في طريقهم فكانوا يمرون عليها أثناء الرحلة وأثناء العودة؛ فيحصل لهم علم كثير بملاقاة رجال العلم الذين كانت تزخر بهم[1].

وقد كان لتوالي الدراسات في كثير من المؤسسات الرسمية وغير الرسيمة أثر كبير في استمرار الأشعرية بهذا القطر، وهذه الدراسات منها ما يعنى بمجال التحقيق وإخراج ما لم يصل إلينا بعد من كنوز الأشاعرة، ومنها ما يهتم بدراسة القضايا والتعريف بالأعلام وجهودهم وبيان آثارهم العقدي والفكري، وهناك جهود حثيثة تبذل في ذلك إلا أن ما يؤسف له أن كثيرا منها لا يجد طريقه للطباعة والنشر، لأسباب منها ما هو علمي محض، ومنها ما هو مادي.

وتدل هذه الأسباب مجتمعة «على مدى تغلغل هذا المذهب بين الناس، وإن كانت الجمهرة الغالبة للمسلمين تؤمن بهذا الدين وعقيدته بإجمال وتعظم السلف ومنهجهم، لأنها لا تعرف المداخل الكلامية والقضايا العقلية التي يعتمدها أهل الكلام»[2].

والناظر فيما ألف من الكتب والمقررات التي تدرس لطلبة علوم الشريعة يلحظ الاتجاه الأشعري فيها بينا واضحا، وقد قامت رسائل ابن تومرت المبسطة الموجزة في العقيدة وخاصة رسالة المرشدة بالدور الكبير في ذلك حيث أصبحت مقررا للحفظ والدراسة في كثير من مناطق المغرب على مر الأيام، وكذا مقدمة نظم ابن عاشر التي انتشرت في الأنام.

1- إبراهيم التهامي، الأشعرية في المغرب دخولها رجالها تطورها وموقف الناس منها، ص: 10.
2 - عبدالرحمن بن صالح المحمود، موقف ابن تيمية من الأشاعرة، ج: 1، ص: 14.

المطلب الثاني: الأسباب الموضوعية

السبب الأول: اعتقاد أن الأشعرية هي الفرقة الناجية

اعتقاد المغاربة بأن العقيدة الأشعرية هي الفرقة الناجية الواردة في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة وهي الجماعة»[1] وإضافة إلى هذا اعتقد المغاربة أن العقيدة الأشعرية تتميز بالوسطية والشمولية، وقد أقر العلماء بالمجهود الكبير الذي قام به أبو الحسن الأشعري، في إعادة أسس العقيدة السنية إلى أصلها، وقواعدها الإيمانية السليمة، ثم قرروا جميعا أن العقيدة الأشعرية، هي نفسها عقيدة "أهل السنة والجماعة" إلا أن السؤال المطروح هو: هل تلك العقيدة التي أقرها أبو الحسن الأشعري هي نفسها العقيدة التي كان يدعو إليها ابن تومرت؟ أم بينهما تباين؟. ولعله من نافلة القول التأكيد أن منهج ابن تومرت لا يمكن نسبته كلية إلى مذهب معين من قبله، بل هو خليط جمعه ابن تومرت حسب ما اتفق له، واستطاع ابن تومرت بدهائه أن يقنع الناس بأن ما يدعو إليه هو الحق والصواب، موظفا المدارس الكلامية في العقائد لخدمة أهدافه السياسية، ولذلك نجده يهاجم المرابطين الذين ساروا على منهج أهل السنة والجماعة واتهمهم بالتجسيم والكفر لأنهم في زعمه يضيفون صفات بشرية ومادية على ذات الله[2].

فاجتمعت للموحدين قوتان دافعتان ، هما : الروح المعنوية العالية، والدافع المادي ؛ فانطلقوا ينشرون آراءهم العقدية والفكرية.

1- أبو داود، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ج: 2، ص: 608، حديث: 4597. ابن ماجه، سنن ابن ماجه، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، ج: 2، ص: 1322، حديث: 3993.

2 – علي محمد الصلابي، دولة الموحدين، ص: 35.

السبب الثاني : تميز العقيدة الأشعرية بالمغرب عن المشرق

تميزت الأشعرية بالمغرب عن نظيرتها بالمشرق بجملة من السمات سيما في المجال الكلامي ومنهج الرد والحجاج؛ فقد كان لاختلاف البيئة أثر في اختلاف القضايا المتناولة، فكان بدهيا أن يكون هناك اختلاف في الوسائل والمضامين؛ ففي الوسائل لم تكن عناية أهل المشرق بالكلام ومنهجهم في توظيفه مطابقة تماما لما كان عليه أهل المغرب، ويأتي ذلك تبعا للموقف من الاشتغال بالكلام والفلسفة، يضاف إلى ذلك من يحق له الاشتغال بتلك الأمور: العامة أم الخاصة؟ وقد كانت المرونة البادية عند أهل المغرب متفوقة على المشرق، لذلك بزغت مؤلفات تختلف أسلوبا ومضمونا، ولم تكن المشيخة العلمية تقتضي التبعية المطلقة وعدم التميز والإبداع .

وأهم معالم تميز الفكر الكلامي المغربي عن نظيره المشرقي:

أولا: اعتبار المعرفة هي أول الواجبات.

ثانيا: حضور علم الكلام في النوازل والمستجدات.

ثالثا: الجمع بين الكلام والسلوك، أي إنزال علم الكلام من برجه النظري ليتحول إلى سلوك عملي تطبيقي. وإذا كان علم الكلام تلبس لدى المشارقة بالمباحث الفلسفية التي أضرت به؛ فإنه عند المغاربة أعيد إلى أصالته وبداهته؛ فارتبط ارتباطا أصيلا بالتوحيد...، وما ذكره ابن خلدون من أن علم الكلام عند المتأخرين قد التبست مسائله "بمسائل الفلسفة بحيث لا يتميز أحد الفنين عن الآخر، ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم" أقرب من الانطباق على علم الكلام في المشرق منه في المغرب؛ لا سيما أنه مثل لذلك بالبيضاوي في "الطوالع"[1].

1- خالد زهري، الفقه المالكي والكلام الأشعري محاولة لإبراز بعض ملامح الإبداع الكلامي والصوفي عند فقهاء المغرب، ص: 51.

والمغرب الأقصى وإن ظهر فيه دارسون اعتمدوا في البداية على كتب أئمته في البلدان الإسلامية التي لم تهجره. وكان ذلك خاصة في المشرق الإسلامي ولكنهم سرعان ما امتلكوا ناصيته وقدموا لنا نتاجهم في أصول الفقه والدين[1].

وقد أكد بعض الدارسين المهتمين بالفكر الأشعري أن: «للمشرق خصائصه التي تميزه، كما أن للمغرب خصائصه التي تميزه، والسياق الذي تتحرك فيه الثقافة المشرقية غير السياق الذي تتحرك فيه الثقافة المغربية»[2].

وقد «اختار المغاربة لأنفسهم مذهب الإمام الأشعري الذي أصبح بجهود مؤسسه وتلامذته مذهبا متكاملا يمتلك قدرة فائقة على التأسيس والإقناع والمناقشة، فتمكن من مواصلة الأطروحات المغرية التي تبناها مذهب الاعتزال، فتغلغل في الثقافة الإسلامية من خلال قدرة رجاله على السجال والنقاش والالتفاف على النصوص التي لا تخدم آراءهم، لقد اختار المغاربة "مذهب الأشاعرة" لما لمسوه فيه من حفاظ على جوهر العقيدة، وحرص على درء التشبيه والتعطيل، ولما لمسوه فيه من وسطية تتجاوز القراءة الحرفية للنصوص، كما تتجاوز التأويل البعيد الذي يصادر دلالة النص من غير داع ملجئ إليه، وهكذا وقف الفكر الأشعري موقف العدل والاعتدال من كل القضايا التي بلغ التباين فيها حد التناقض»[3].

السبب الثالث : تمذهب بعض فقهاء المالكية بالعقيدة الأشعرية

كان لدخول المذهب المالكي إلى المغرب أثر قوي في دعم عقيدة الأشاعرة؛ ذلك أن عددا من فقهاء المالكية كانت عقيدتهم أشعرية، وآثر أتباعهم عقيدتهم وانتموا إليها، فكان هو مذهبهم العقدي إلى جانب فقه مالك وتصوف الجنيد، وهكذا ارتبط العقدي بالفقهي والصوفي في تفكير المغاربة .

1 – أبو الحجاج المكلاتي، لباب العقول في الرد على الفلاسفة في علم الأصول، تحقيق: فوقية حسن، ص: 66.

2– خالد زهري، الإبداع الكلامي لدى أشاعرة المغرب، ص: 171.

3 – http://www.muslems.net/vb/t24359.html?langid=1

ودرج الفقهاء المالكيون على أن يفتتحوا مؤلفاتهم الفقهية بذكر مبادئ العقيدة الأشعرية وأساسياتها، فصدروا بعض كتبهم بمباحث العقيدة، ونجد لذلك أمثلة واضحة في مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني[1]، وفي مقدمة منظومة ابن عاشر، وفي كتاب الجامع من الذخيرة....

السبب الرابع: التكوين العلمي الرصين

ليس يخفى ما يتميز به علماء الأشاعرة من التبحر في العلوم والتخصص في شتى الفنون، الأمر الذي أضفى على شخصيتهم صبغة علمية وإعجابا بهم، لمكانتهم العلمية؛ وأثر ذلك على أتباعهم الذين اختاروا نهجهم وسلكوا سبيلهم، ومن هؤلاء الأعلام الذين كان التأثر بهم واضحا أبو الحسن الأشعري، قال القاضي عياض في "ترتيب المدارك": «لما كثرت تواليفه وانتفع بقوله، وظهر لأهل الحديث والفقه ذبه عن سنن الدين، تعلق بكتبه أهل السنة، وأخذوا عنه ودرسوا عليه، وتفقهوا في طريقه، وكثر طلبته وأتباعه لتعلم تلك الطرق في الذب عن السنة، وبسط الحجج والأدلة ونصر الملة، فسموا باسمه، وتلاهم أتباعهم وطلبتهم فعرفوا بذلك، وإنما كانوا يعرفون قبل ذلك بالمثبتة، سمة عرفتهم بها المعتزلة، إذ أثبتوا من السنة والشرع ما نفوه... فأهل السنة من أهل المشرق والمغرب بحججه يحتجون، وأثنوا على مذهبه وطريقته»[2].

ولذلك كان من أسباب انتشار المذهب الأشعري أن جمهرة من العلماء اعتمدوه ونصروه، وخاصة فقهاء الشافعية والمالكية المتأخرين، كالباقلاني، وابن فورك، والبيهقي، والإسفراييني، والشيرازي، والجويني، والقشيري، والبغدادي، والغزالي، والرازي، والآمدي، والعز ابن عبد السلام، وبدر الدين ابن جماعة، والسبكي،

1 – هناك خلاف معروف في تصنيف رسالة ابن أبي زيد القيرواني هل هي سلفية أم أشعرية، والغالب عليها الأول، وهناك من ألف كتبا خاصة لبيان أشعرية القيرواني، وممن عده من المتقدمين من الأشاعرة: ابن عساكر، وتاج الدين السبكي، وهناك من يعده من المدرسة السلفية، والخلاف في ذلك معروف، وليس هذا محل بسطه.

2 – القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي – عبد القادر الصحراوي – الدكتور محمد بن شريف – سعيد أحمد أعراب، ج: 3، ص: 44.

وغيرهم كثير، ولم يكن هؤلاء أشاعرة فقط، بل كانوا مؤلفين ودعاة إلى هذا المذهب، ولذلك ألفوا الكتب العديدة، وتخرج على أيديهم عدد كبير من التلاميذ، ووحدة المذهب لا تقتضي الاتفاق في الفروع، بل التباين والاختلاف في كثير من المسائل بين ووارد لمن نظر في كتبهم.

وكان لظهور الباقلاني في المشرق كحامل للواء الأشعرية أثر كبير في نشر مذهب الأشعري في المغرب، والسبب في ذلك أنه كان إلى جانب أشعريته في الأصول مالكيا في الفروع، لذلك أقبل عليه طلبة العلم من المغرب، يأخذون عنه المذهب المالكي والطريقة الأشعرية في آن واحد، ويظهر تأثر أهل المغرب بالباقلاني وإعجابهم به أنهم كانوا يستشيرونه في المسائل والنوازل التي كانت تطرأ لهم، وممن أخذ عن الباقلاني من مشاهير علماء المغرب الذين كان لهم دور فعال فيما بعد في نشر المذهب الأشعري في المغرب أبو عمران الفاسي(ت: 430هـ) فقد رحل إلى بغداد سنة 399هـ وتلقى أصول المذهب عن الباقلاني الذي أعجب بذكائه وحفظه، ولما رجع إلى القيروان وجلس بها وظهر علمه قصده الناس من كل جهة. قال أبو عمران: رحلت الى بغداد وكنت قد تفقهت بالمغرب، والأندلس عند أبي الحسن القابسي، وأبي محمد الأصيلي، وكانا عالمين بالأصول؛ فلما حضرت مجلس القاضي أبي بكر ورأيت كلامه في الأصول والفقه، والمؤالف والمخالف، حقرت نفسي وقلت: لا أعلم من العلم شيئا، ورجعت عنده كالمبتدئ[1]. ونجدد التنبيه إلى أن هذا الأخذ لم يكن يعني التبعية المطلقة؛ فنقد التلاميذ المغاربة لشيوخهم بالمشرق بين واضح، ومن نظر فيما انتقده ابن العربي في كتابه "قانون التأويل" وغيره من كتبه على شيخه الغزالي يتجلى له ذلك، وهو انتقاد متباين من مرحلة إلى أخرى؛ فقد كانت هنالك مراحل تأثر التلميذ بالشيخ، ومراحل الاستقلال بالفكر، ثم مرحلة النقد والرد، وكل ذلك لا يعد من التناقض في شيء بل لكل مرحلة ما يلائمها، وبدهي أن يكون النظر متقلبا والاستنباط متفاوتا.

1 – نفسه، ص: 45.

ورغم تفوق أعلام وعلماء أشاعرة كبار في علم الكلام وغيره من الفنون؛ فإن ابن تومرت نال النصيب الأكبر من الجدل والشهرة، واستطاع أن يبرز بين الأعلام وإن لم يكن أعلمهم وذلك في نظري يرجع إلى سببين:

1- لأنه هو الذي فتح الباب في بلاد المغرب لدخول التأويل الكلامي، ولم يقتصر الأمر على هذا بل تبنى -بصفته إماما مطاعا- هذا الجانب فكان لسلطته الدور الأكبر في انحسار مذهب أهل السنة، وفشو مذاهب المتكلمين.

2- تأليفه للمرشدة، وهي مستقاة من مذهب الأشاعرة، ولم يقتصر الأمر على هذا بل كان يفرض هذه العقيدة على الناس، بحيث تدرس للعوام، مما جعلها تشتهر بسرعة.

خاتمة

خلاصة ما توصلت إليه من خلال هذا البحث هو:

- تعدد المذاهب التي كان يدين بها المغاربة قبل دخول الأشعرية.
- اختلاف العلماء في تحديد أول من أدخل الأشعرية إلى المغرب.
- أن الأشعرية لها أسباب تاريخية وموضوعية تمكنت بها من الانتشار في المغرب.
- للمدارس العلمية والتأليف العلمي أثر كبير في استمرار الأشعرية ببلاد المغرب.
- أثر ابن تومرت البارز في اعتناق المغاربة العقيدة الأشعرية.

توصيات:

_ تخصيص هذا الموضوع بمزيد من البحوث والدراسات.

_ تحرير المرحلة التي يعنى بها البحث من حيث النقول والأحداث والوقائع التاريخية وتمييز صحيحها من سقيمها.

_ التمييز بين الأخبار كأخبار وبين تحليلات المؤرخين التي هي من اجتهادهم.

- تناول جهود ابن تومرت العلمية المتعلقة بنشر العقيدة الأشعرية ببلاد الغرب ومناقشتها وتحليلها تحليلا علميا موضوعيا.

المصادر والمراجع

1. إبراهيم التهامي، الأشعرية في المغرب، دخولها رجالها تطورها وموقف الناس منها، الجزائر، دار قرطبة، ط: الأولى، 1427هـ/2006م.
2. ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: محمد رشاد سالم، الرياض، دار الكنوز الأدبية، 1391ه.
3. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، تحقيق: عادل بن سعد، دار الكتب العلمية.
4. ابن خمير السبتي، مقدمات المراشد إلى علم العقائد، تحقيق: جمال علال البختي.
5. ابن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1415هـ/1995 م.
6. ابن ماجه، سنن ابن ماجه، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، الناشر: دار الفكر.
7. أبو الحجاج المكلاتي، لباب العقول في الرد على الفلاسفة في علم الأصول، تحقيق: فوقية حسن محمود، الناشر: دار الأنصار القاهرة، ط: الأولى، تاريخ النشر: 1977م.
8. أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى، الناشر: دار الكتاب، الدار البيضاء.
9. أبو داود، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الفكر.
10. أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة.
11. تقي الدين المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق: محمد زينهم/ مديحة الشرقاوي، الناشر: مكتبة مدبولي.
12. جمال علال البختي، جريدة لتجديد، http://www.attajdid.info/def.asp?codelangue=6&infoun=12807
13. خالد زهري، الفقه المالكي والكلام الأشعري محاولة لإبراز بعض ملامح الإبداع الكلامي والصوفي عند فقهاء المغرب، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت.
14. الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: بشار عواد معروف/ شعيب الأرنؤوط/ حسين الأسد/محمد نعيم العرقسوسي/ مأمون صاغرجي/علي أبو زيد/نذير حمدان/ كامل الخراط/صالح السمر/أكرم البوشي/إبراهيم الزيبق/محيي هلال السرحان، مؤسسة الرسالة، ط: 11، 1417هـ/ 1996م.
15. عبد الله على علام، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، ط: الأولى، دار المعارف، مصر، تاريخ النشر: 1971م.

16. عبدالرحمن الفاسي، نظر الأكياس في الرد على جهمية البيضاء وفاس (نسخة مفرغة من نسختين خطيتين) نقلا عن موقع: http://www.al-afak.com/showthread.php?t=4774 بتاريخ: 2012/01/15.

17. عبدالرحمن بن صالح المحمود، موقف ابن تيمية من الأشاعرة، الناشر: مكتبة ابن رشد، تارشخ النشر: 1415ه/1995 م.

18. علي الصلابي، دولة الموحدين، دار البيارق، تاريخ النشر: 1998م.

19. عياض، الغنية في شيوخ القاضي عياض، تحقيق: ماهر زهير جرار، دار الغرب الإسلامي،ط: الأولى 1402 هـ - 1982 م.

20. القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي - عبد القادر الصحراوي - الدكتور محمد بن شريف - سعيد أحمد أعراب، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، ط: الثانية 1403 هـ - 1983م.

21. مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1406هـ/1986م.

22. محمود اسماعيل، الأغالبة سياستهم الخارجية.

23. المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تحقيق: الدكتور صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ط: الأولى، 1426هـ/2006م.